

التاريخي في رواية كولونيل الزبير للحبيب السائح بين جدل المرجعي والتمثيل الفني التخيلي

History in the novel: Colonel Al-Zabarbar by Al- Habib Al-Sayeh, between the reference controversy and the imaginary artistic representation

نور الهدى غرابة^{1*}، سليم كرام²

¹ جامعة بسكرة، (الجزائر)، norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

² جامعة بسكرة، (الجزائر)، s.kiram@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ المراجعة: 2022/05/08

تاريخ الإيداع: 2022/02/15

ملخص:

هيمنت المرجعية التاريخية على الأعمال الروائية الجزائرية، إذ إن المبدع انطلق من صميم مجتمعه وجعل من التاريخ الوطني مادة له، فاستطاع بخياله أن يبعث الماضي ليوثق علاقتنا به ويربط بينه وبين الحاضر وفق رؤية فنية جمع فيها بين روعة الخيال وصدق الحقيقة التاريخية، حيث تجلى توظيف التاريخ على شكلين: الأول من خلال تفاعل التاريخ وتمظهراته المختلفة في بعده المرجعي العام، والثاني من خلال استعادة بعض وجوهه والتأسيس لوعي تاريخي جديد في قالب تخيلي جمالي. وتسعى هذه الورقة البحثية إلى تتبع مسارات توظيف التاريخ وكشف العلاقة التي تربطه بالرواية في قراءة لرواية كولونيل الزبير للحبيب السائح. الكلمات المفتاحية: الرواية، التاريخ، المرجعية، التخيل، التسريد، الشخصية.

Abstract:

The Algerian narrative works were dominated by the historical reference, as the creator came from the very core of his society and made national history his subject matter. He was able, with his imagination, to evoke the past in order to document our relationship with it and to link it to the present, based on an artistic vision in which he combined the glamour of fiction with the truth of history. The first is through the interaction of history and its various manifestations in its general reference dimension, and the second is through the restoration of some of its faces and the establishment of a new historical consciousness in an aesthetic and imaginative way. This research paper seeks to track history and reveal its relationship with the novel in a reading of EL Habib Sayeh's novel EL Zaberber's Colonel.

Keywords: novel, history, reference, fiction, narration, personal.

* المؤلف المراسل.

تقديم:

إن الكتابة الروائية تصنع التاريخ وتشكل به تاريخا خاصا، فهو يختزن في سجلاتها الكثير من الأحداث والصور والشخصيات بأزمنة وأمكنة مختلفة، يمكن استثمارها ومحاكمتها وفق بناء روائي يسعى من خلاله الروائي إلى تشكيل رؤية خاصة يعالج فيها التاريخ ومضامينه وفق سردية يستند فيها على الذاكرة، لاشك أن مرجعية النص الروائي المستند على التاريخ تتعدد مدلولاتها فهو لا ينقل التاريخ الصرف بل يستثمر بعض أحداثه هنا تظهر براعته في انتقاء الأحداث الأفضل للتسريد الروائي، وهذا ما ركزت عليه الرواية الجزائرية المعاصرة التي واكبت عوالم التاريخ فكانت الغاية من المرجعية التاريخية فضح المسكوت عنه والبوح عن أسراره ومكنوناته، في هذه النقطة بالذات تكمن أهمية المرجعية وخطورتها على المبدع الذي يقترب من عوالم التاريخ المظلمة ويعيد إنتاجها وفق رؤية سردية فنية يصطدم فيها بالتاريخ. وتسعى هذه الورقة البحثية إلى استظهار الخصائص الفنية والجمالية التي ساعدت الكاتب على دمج الحقيقة التاريخية بالحكاية السردية، والكشف عن علاقة المتخيل الروائي بالمرجعية التاريخية، وانطلاقا من هذه المعطيات ستحاول دراستنا الإجابة عن جملة من الأسئلة:

- هل تعد رواية "كولونيل الزبير" انعكاسا مباشرا لأحداث ووقائع مسكوت عنها؟ أم إن الخطاب الروائي يشخص المرجع ويعيد بناءه لتحريك اللحظات التاريخية وإحيائها من جديد؟
- كيف قدم السارد الشخصية التاريخية في صورتها الروائية؟
- هل أضفى المكان المرجعي على السرد الروائي أبعادا دلالية أكثر تأثيرا؟

أولا: التاريخ الوطني (جدل الذاكرة وأسئلة الراهن)

كثيرة هي الروايات الجزائرية العربية التي تناولت التاريخ وتفاعلت معه، كرواية الأمير لواسيني الأعرج والديوان الإسبرطي لعبد الوهاب عيساوي، روايات عز الدين جلاوي... حيث جعلت منه المادة الخام التي انطلقت منها في التأسيس لوعي تاريخي جديد يحيل على حقائق الماضي المنسية ويتفاعل معها، والتاريخ الوطني على وجه الخصوص من أهم الركائز التي اتكئ عليها الروائي وأعاد كتابتها بكل دقة وأمانة، والحبيب السائح من الروائيين الذين تميزت أعمالهم بالكتابة التاريخية بداية من فترة الاستعمار إلى الثورة ومرحلة الاستقلال وما بعدها الحرب ضد الإرهاب التي أشعل فتيلها لعشر سنوات، وهذا ما يؤكد أن العلاقة بين التاريخ والرواية علاقة وطيدة لأن كليهما يكمل الآخر ويعبر عنه وفقا لمعطيات تفرضها الأحداث الواقعية، وهما مصطلحان متلازمان تجمع بينهما المرجعية والتمثيل التخيلي، على اعتبار أن الروائي لا يستطيع دمج كل الفترات التاريخية في سرده الروائي، كما أن هذه الحقائق لا تخلو من التخيل الذي يلجأ إليه الروائي لسد الفراغات التي غُيبت عمدا فيقيم لها تصورا يتماشى مع الأفكار التي سجلتها ذاكرته من خلال التحقيق في أحداث هذا الماضي التليد والتي أسدل الستار عنها لظروف غامضة. وهذا ما سنتطرق إليه في رواية "كولونيل الزبير" التي عملت على نقل الأحداث والوثائق التاريخية والشخصيات، حيث شكلت المرجعية التاريخية "طاقة يتم استثمارها في العمل الروائي نظرا

لما تختزنه من أحداث وتواريخ مهمة، فالتاريخ عبارة عن سجل يحمل في طياته ماض مليء بالحوادث المختلفة والمتضاربة أحيانا أخرى.¹ والرواية لا تجعل من التاريخ وثيقة صرفة، بل تعتمد على عنصر التخيل لأن غايتها ليست إعادة صب المادة التاريخية بل تحليلها وإعادة بنائها وهذا ما يؤكد عليه لوكاتش في قوله: "ما يهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية، التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي"² فالروائي تعمل على دمج الرواية بالتاريخ، وفقا لبناء سردي يندمج فيه التخيلي بالمرجعي، "فينفتح على كتابة لا تحمل وقائع التاريخ ولا تعرفها، إنما تبحث في طياتها عن العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر، وعن التمثلات الرمزية فيما بينهما."³ فالتاريخ عبارة عن مجموعة من الأحداث التي تعكس جانبا مهما من جوانب الحياة الإنسانية، ينقلها الروائي على شكل نص يحول فيه أفكاره ومشاعره بأسلوب جزل، يتوافق مع رؤيته للبيئة التي يعيش فيها، كما ينحو إلى "النظر بإحساسه الفني إلى التاريخ على أنه المادة التي يستطيع عبرها تصوير رؤيته للواقع، والتعبير عن تجربة من تجاربه، وهو بذلك لا يكتب التاريخ بل يقيم معالم له"⁴ حيث شكلت المرجعية الإيديولوجية التي انطلق منها الروائي ليؤسس نصا له رؤية تاريخية إنسانية، تفرز لنا عمق صراع الذات الجزائرية مع الآخر وهذا ما يمثله قوله: "الواجب ينادينا. نحن نقاتل بشرف الرجال. العالم كله يستمع لأخبارنا، يقدر شجاعتنا. وهذه الأرض تنصت لمطلبنا: الحرية! أنتم لا تعتدون على أي قانون. نحن نحارب من أجل إزالة القوانين الظالمة في حقنا. أنتم لا تريدون سوى تصفية هذا الاعتداء المتواصل على بلدنا منذ مائة وخمسة وعشرين عاما. نعم، قرن وربع، الآن! هل هناك شعب في الدنيا قام لاسترداد حقه المغتصب لم ينتصر؟ نحن، بعزيمة رجالنا ونسائنا، هناك خلفنا، بتضحيتنا القصوى من أجل هذه الأرض، سنوقف الزمن لينظر إلينا بقدر ما نحقق نصرنا"⁵ يمثل المقطع السردي تفاصيل لأحداث حقيقية كانت بمثابة قيم اتفق عليها الثوار وتبنوها من أجل استرداد حريتهم المسلوقة من قبل استعمار لا يرحم دمر البلاد وسلب حرية المواطنين وانتهك كل الأخلاقيات والقيم، هي دعوة مباشرة لتبني الثورة والالتفاف حولها لأنها السبيل الوحيد الذي به يتحقق النصر وبهذا المعنى نرى أن "السرد باعتباره علامة دينامية يتمفصل وفق نظام ترميز مزدوج أدبي- ثقافي يعكس رهانات الاستراتيجية السردية، حيث تستحضر سياقات الهوية والتخيل والتاريخ (...) من أجل فرض تصور معين للعالم"⁶ فالرواية تعبر عن حقبة من تاريخ الجزائر (زمن الاستعمار، ما بعد الاستقلال)، انفتحت فيها الكتابة وفقا لآليات جيدة تعتمد على فضح المضمير السياسي، تجاوزت بذلك طابع التوثيق والبحث، وهذا ما جسده العلاقات الشائكة بين حضور المرجع وغيابه فتماهى الخطاب التاريخي مع الواقع الروائي من خلال الاستعانة بالفضاء الزمكاني وكذلك حضور الشخصيات الاستذكارية والتاريخية معا.

ثانيا: فاعلية ثورة التحرير (جدل الوثيقة التاريخية بين المرجعية والتخيل)

إن ما يمكن التأكيد عليه في هذا السياق أن ثورة التحرير قد مثلت تيمة مركزية عالجاها المتن الروائي الجزائري "فموضوع الحرب التحريرية يمر من مستوى التاريخ إلى الحاضر كتعظيم للأنما في مختلف الخطابات اللغوية، كما أن الجزائري ينزع لتعريف نفسه في التاريخ كمقاوم، وتتخذ شعارات وسمات المقاومة والرفض، عناصر كونه الرمزي وقراءاته للماضي ومسارات شخصيته المستعادة"⁷، مثل النضال الثوري والتاريخي عبر

محطاته التاريخية المتعاقبة خطابا سياسيا وإيديولوجيا، بحث فيه الروائي باستفزازه للتاريخ ومساءلته بتحويل الحدث التاريخي إلى حدث فني. فقد ظلت المرجعية التاريخية في رواية "كولونيل الزبير" البانية لسلطة السرد والدلالة، تحيل على الصراع الذي لازم التاريخ الوطني، وعلى الهوية والمبادئ التي ظلّ الشعب متمسكا بها فقد "توسل الروائي بالسرد وتقنياته لتأثير فضاءات روائية أنيقة تحركها شخوص مختلفة ومتناقضة ومتحولة، تحيي الظاهر والباطن وتعيش السياسي والديني، حيث التفاعل مع كل تحول تعكسه الملفوظات ويترجمه تنوع المعجم والإحالات والرموز"⁸ حاول الروائي أن يجسد عالم حكائي يلتحم فيه التاريخ بالراهن من خلال التقاط التحولات التي شهدتها التاريخ الوطني من أعطاب واختلالات رافقته في محطات زمنية متعاقبة.

تنفتح رواية "كولونيل الزبير" على وقائع حرب التحرير وما ترتب عنها بعد الاستقلال، لتكون بذلك من أهم النصوص الروائية التي سلكت مسلكا جديدا، فقد جاءت لتحارب النسيان وتقاومه عبر استعادة الذاكرة المغيبة، تجرأت عن المسكوت عنه في حرب التحرير، من خلال مذكرات "مولاي بوزقرة" التي سجل فيها التجاوزات الخطيرة التي ارتكبت إبان الثورة التحريرية، من تصفيات واغتيالات في صفوف جيش التحرير "ليست فحسب مسؤولية؛ كنت أحسها أمانة أن انزل الملف، بارتباك، بهشاشة وبخشية أيضا، ليكون شهادة على ما نهبتة من تاريخ رجال الشرف أنانيات الساسة، وزحزحته حساباتهم إلى عراء النسيان. فيها ذاكرتي، كما جيلي بأكمله، تلطخها حماقاتهم المتعاقبة منذ خمسين عاما"⁹، لم تكن هذه المذكرات التي قرأها "الطاوس" مجرد أحداث أو حكايات، وإنما كانت حقائق مثقلة بأوجاع التاريخ "بوزقرة" كشف لنا فيها عن خبايا الثورة والمؤامرات التي نسج خيوطها بعض الساسة الموالين للاستعمار، وأعادنا إلى الذاكرة التي لم يكن لنا علم بها فالجزء المظلم فيها غيبه المتأمرون، وانطلاقا من هذه الكتابة المضادة بين لنا الوجه الآخر للثورة. فهذه الأحداث بالرغم من أنها تميل للتمثيل التاريخي، إلا أن "قانون المطابقة" الذي يرمي الروائي من خلاله "إلى الإيحاء بـ"تاريخية" ما يحكيه، وبأنّ الأحداث المقدمة تروى وكأنها "جرت" فعلا في الواقع التاريخي على النحو الذي تمثله الرواية"¹⁰، ويظهر ذلك من خلال المؤشرات التاريخية التي استخدمها ولو أنّها تميل للخيال إلا أنها تبدو "مطابقة" للواقع الحقيقي بسبب شخصياتها التي تميل للواقعية وأحداثها المعتمدة على ركائز تاريخية. يقول "كانت ساعات بليغة القسوة هذه التي عاشها الزبير. ولكن ها أنتم تشهدون أنّه قبل أربعة أعوام كان شمبيط واحد يذل مائة جزائري. واليوم، رأيتم فرنسا بكل تعدادها وسلاح مدفعيتها وطيرانها لم تستطع أن تزحزحنا. هذا يعني شيئا واحدا، برغم خسائرنّا: سننتصر!"¹¹، يحاول الروائي عبر السرد طرح القضايا والأحداث التي يراها أهملت في الواقع، وهو بذلك يؤسس لوعي جديد يمكّن فيه القارئ من الاطلاع على حقائق التاريخ المغيبة عنه قسرا يقول "كبخار تحول هيئة بشرية كما في أي خرافة تمثل لي كولونيل الزبير من بين الكلمات فملاً علي شاشة حاسوبي، لم أستعد، ومن خلف شبحة سمعته، هو صوته، صوتي أنا، صوت من يشعر بنفسه في غياب تاريخه المنسي أحسست ذاتي راحت تتوارى هناك بعيدا بعيدا"¹²، هذه الأحداث التي عرفتها "طاووس" كانت بمثابة صدمة لها، وهي التي كانت لا تعرف عن ثورة التحرير إلا القدسيّة والمجد وهي بالنسبة لها ولكل الجزائريين الحدث المقدس الذي كان دافعا لمعانقة الحرية واسترداد الأمجاد الضائعة، مذكرات جدها أتاحت لها معرفة جديدة، تعرفت من خلالها عن أسرار لم تطالعها في كتب التاريخ.

تقدم الرواية الثورة وفق مرجعية سردية جديدة "فتنبني على ما يمكن وصفه بسردية «الفضح والتعرية»¹³ لأنها تعيد قراءة التاريخ بوعي جديد يمكن المتلقي من إقامة علاقة جديدة مع تاريخه المجهول لأن جزءا كبيرا من البشرية يسعى للتحرر مما يتعرض له من استبداد التاريخ، ولا يعد السبل القصيرة لذلك، إلا أن هذه السبل التي يهتدي إليها هي بالذات تلك التي توفرها آخر الأشكال المتحجرة من التاريخ"¹⁴، وانطلاقا من فضاء الرواية المتخيل نجد أن "جبل الزبير" كان مسرحا لهذه الوقائع التاريخية، بوصفه الفضاء الجغرافي الذي جرت فيه الأحداث بكل تفاصيلها وتفاعلت فيه الشخصيات، حيث بدا فضاء مرعبا نتيجة الحرب المأساوية والوحشية التي استباحت دم الإنسان وأدخلته في حالة خوف وهلع لا ينتهي، هذا المكان الذي عُرِف بأخضراره وخيراته أصبح شاهدا على سنوات دامية من استعمار مدمر إلى حرب أهلية فتكت بالمجتمع، والرواية تمثل جرّداً لأحداث الذاكرة التاريخية للجزائر، انطلاقا من فضاء "الزبير" التاريخي وفق رؤية سردية يلتقط فيها الروائي جراح الوطن النازفة تتضمن وقائع لأحداث ينهلها من الذاكرة التي تحتوي على معالم تاريخية استحضرها وأسقطها على الحاضر وبذلك "يصبح الاتكاء على الماضي ذريعة لإنتاج هويّة تقول بالصفاء الكامل، والمسار المتفرد بين الأمم والجماعات التاريخية"¹⁵، فوجود الماضي في قالب الحاضر ما هو إلا عملية إسقاط لتشابه الأحداث وبؤس الواقع الذي تزعزت قيمه وتضاربت فيه وجهات النظر السياسية، والاعتراف بهذه الحقائق المؤلمة عرضه علينا السرد الروائي يقول: "فأنا ما انفككت أنتظر، مذ وعيت وجودي التاريخي، أن يعاد لحرب التحرير مجدها المسلوب"¹⁶، تحمل سردية "كولونيل الزبير" دلالات عميقة تروي تجارب الماضي التي ظلت مغيبة على ذهن الجزائري الذي يمجد ثورته ويقر بنزاهتها، والاعتراف بهذه الحقائق المؤلمة سيجعله حتما يعيد قراءته لتاريخيه.

هذه الذاكرة حفظت الماضي وظلت متمسكة بكل جزئياته، واستوعبت كل أحداثه، هي اليوم بمثابة ذخيرة انطلق منها الروائي، فمحمول تاريخ (جبل الزبير) كان مرجعية لسرد الرواية، ومادة خصبة أتاحت له مساحة في السرد وساهمت في تكثيف دلالات النص، حيث حاول أن يعيد مجد ماضي المنطقة، ويضيئ على أهمية المكان وما حظي به من مكانة تاريخية، فحمل دلالات تفوق إطاره الطبيعي، بل أنسنه وجعله رمزا للوطن الصامد فهو «يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية، والحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات الإنسانية، وأسلوب تقديم المكان هو الوصف"¹⁷، تتضح المأساة في هذا المكان "جبل الزبير" الذي أضحى رقعة جغرافية شهدت صراعات متعاقبة" سفح جبل الزبير، الذي لقصف قلبه بالنابالم بدا اخضرار جنباته ذائبا؛ كأنما حزنا أيضا على طيور الحجل والحمام..."¹⁸، هذا ما تبنته مرجعية الرواية التي جعلته عنصرا من عناصر فهم الشخصية، وتداعي ذكرياتها، والأمر عينه مع الزمان الذي تشظى من تسلسل وتتابع الأحداث وأضحى لا ماديا.

ليس غريبا على الحبيب السائح جرّاته في طرق المسكوت عنه الذي مازال مشفرا تشوبه الضبابية، خاصة الذاكرة النصالية إبان ثورة التحرير يقول "لكنها كولونيل الزبير يبسط أن التفكير في حفظ وقائع الحرب، عقب إعلان الاستقلال وإشراق الأذهان بالأحلام الجديدة، مكتوبة كما عاشها الجنود، لم يكن يردّ على خاطر؛ فكل نفس كفاها أن الحرية المنشودة حصلت فسقط التكليف. وأن كل ما حدث أحصي في كتاب ثورة نوفمبر الجمعي"¹⁹، يبرز لنا هذا السرد أن كل التجاوزات التي ارتكبت أعفّي عنها وكانت الفكرة التي تشغل بال الجميع هي بناء الجزائر الجديدة "حرب تجري، بقسوتها وفضاعتها وآلامها وثمرتها، لا يكتب تاريخها جبناء... هاهو نصف قرن

يمر على أول نوفمبر ولا شيء يكتب. الآن يتساءل: لمن كان سيقول إنك بعد خمسين سنة تعالين أنك أصبحت على فجيرة توقيك، لسانة الاستقلال وأرباب الدولة، صكا على بياض ليستولوا على تاريخ حرب تحرير كتبه بدمه وغناه بالأمه شعب بأكمله²⁰، ففي هذا القول نظرة ثاقبة تدعو إلى التأمل والتدبر في مجريات هذه الأحداث التي يسردها لنا، سجل فيها الانزلاقات والمواقف التي ارتكبتها بعض المعادين للثوار، والقيادات الرشيدة للثورة الذين قُتلوا في ظروف غامضة وتمت تصفيتهم سلب حقهم وضاع، "فكان ذلك أعظم عذاب يمكن أن يسلط على آدمي، كان الجلاد لا يدري غالبا لماذا يفعل ذلك في حق غيره ممن عرفهم أحيانا، وقاسمهم شظف الحياة في الجبل وهو الحرب، لكنه كان يعرف أنه لا يبقى له خيار حين يعين للقيام بالمأمورية غير التنفيذ وإلا دفع حياته ثمنا لتردده، كنت رأيت صالح، الذي كلف مرة بذبج ثلاثة من رفقائه بتهمة محاولة الارتداد...إنهم رفاق حرب أو أشخاص عاديون جميعهم لا يعرفون غالبا لماذا هم يتعرضون لتلك القسوة كلها، كما كانوا لا يرب تمنوا أثناء تعذيبهم أن يقتلوا بشكل إنساني، إن كان في قتلهم عدل(...). تلك هي الحال، فحرب التحرير تحمل معها أيضا قذارتها"²¹ من خلال توظيف الأحداث والشخصيات والمكان المعروف بتاريخه استطاع أن يصور لنا تصورا دقيقا الوقائع التاريخية المسكوت عنها، حيث تغلغل في كل تفاصيلها المظلمة.

ثالثا: الشخصيات الروائية وعلاقتها بالمتخيل السردى

حفلت رواية "كولونيل الزبير" بشخصيات متعددة كوّنت الحدث الروائي و تشابكت عناصر تشكيله بها، وتصنف هذه الشخصيات وفقا لمرجعيات مختلفة، فمنها الشخصيات المرجعية التي ظهرت بأسمائها المعروفة على أرض الواقع، ومنها شخصيات تحيل على الواقعية إلا أن الروائي استبدلها بأسماء أخرى، لقد تعددت الكتابات حول الشخصية وذهب النقاد والأدباء مذاهب متباينة بخصوص بنيتها وفعاليتها في العمل الروائي ونجد منهم الناقد الجزائري عبد الملك مرتاضالذي أعطاها أهمية كبيرة واعتبرها من المكونات الأساسية في أي عمل روائي فهو يعتبر أن "الشخصية هي التي تصطنع اللغة وهي التي تبرع أو تستقبل الحوار وهي المناجاة وهي التي تنهض بدور تضريم الصراع أو تنشيطية من خلال سلوكها وأهوائها وعواطفها وهي التي تقع عليها المصائب (...). وهي التي تملأ الوجود صياحا وضجيجا وحركة وعجيجا وهي التي تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديدا وهي التي تتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل"²²

تعدد الشخصيات داخل صفحات الرواية، فمنها شخصيات رئيسية مركزية والتي تعرف بأنّها "شخصية تتمحور عليها الأحداث والسرد، والفكرة الرئيسية التي تنسج الحوادث، وهي أيضا إيهام بموقف بطولي فردي"²³، وقد ساهمت شخصيات الرواية في توجيه القارئ نحو تاريخه لتقصي و فهم تفاصيل ما جرى في الثورة، كان لا يمكن الحصول عليها لولا "مولاي بوزقزة" السارد المدون لهذه الأحداث في مذكراته، وقد بنى الروائي هذه الشخصية بناءً تاريخيا، تجاوز المنظور التقليدي الذي يقدم الشخصية بصورة نمطية، لأنه أحاط بعوالم الشخصية (النفسية، الفكرية، الإيديولوجية...)، كما نقل لنا محمولها التاريخي، وبين نظرتها العميقة للوجود، والحياة، والمجتمع "فالشخصية لكي تكون مقنعة لا بد أن تكون متطورة لها أبعاد تحددها، وهذه الأبعاد تتمثل في الدوافع والحواجز التي تدفعها للقيام بعمل ما، كما تتحدد بتصرفاتها من إشارة وحركات وصفات نفسية، وهذا كله هو

ط.د.نور الهدى غرابة د.سليم كرام التاريخي في رواية كولونيل الزبير للحبیب السائح بين جدل المرجعي

ما يضيف لها بُعداً جديداً هو العمق.²⁴، فالمحمول الإيديولوجي للشخصية البطلة في الرواية تمثل في التمسك بالأصل والهوية والوطن، رغم ما يحيطه من أزمات وظروف سيئة تظل الوطنية أساس الانتماء والبقاء في ظلّه، والاحتماء به، وهو ما اتصف به شرفاء الوطن وشهداءه، وقد تمظهر ذلك في عديد السّياقات، أبرزها: "يشعر بها مولاي بوزقزة عزاءً شمس أول نوفمبر هذه التي تدفئ صدره في هذا العام 1960. إنه يسجل لو كان يستطيع أن يتواجد في كل مكان في اللحظة ذاتها ليفدي كل ضحية من الأهالي في الريف، في المدن!"²⁵، "وكما والدي، لما دون أنه وجد تلك الأوراق المرقونة تشبه شكل فصل من رواية أو من كتاب مذكرات فرأيتها أنا هي أقرب من ذا وذاك إلى وثيقة غير مؤرخة أراد لها صاحبها أن تصل برغبة أن يتخذ منها شهادة على أمر ما (...). لم يكن خشي فحسب أن يضيع ما أؤتمن عليه ولكن ليمس بها لي أيضاً، أنا ومن معي، جلال الصمت الذي انخلع على رجال ونساء آخرين خلقوا لتنفس الحرية من نبض قلوبهم"²⁶، استعاد الروائي محطات تاريخية في حياة بوزقزة ويتجلى ذلك في قوله: "لتكون شهادة على ما نهيته من تاريخ رجال الشرف أنانيات الساسة، وزحزحته حساباتهم إلى عراء النسيان. فما ذاكرتي-كما جيلي بأكمله- تلتخطها حماقاتهم المتعاقبة"²⁷

أما شخصية "جلال الحضري" (كولونيل الزبير) الابن الذي استلم المذكرات وقدمها لابنته "الطاوس"، كان خير شاهد على ما شهدته الجزائر أيام العشرية السوداء سعى إلى تحقيق العدالة وحلم بجزائر جديدة، "فأخذ كولونيل الزبير يده بين راحتيه وضغط قليلاً "سنستعيد يوماً رشدنا"²⁸

في حين أن شخصية "الطاوس" ترمز للجيل الواعد الذي يسعى لبناء جزائر جديدة واسترجاع أمجاد الماضي الضائعة.

وسنوضح دور الشخصيات في الخطاطة الآتية:



ومن الشخصيات ذات المرجعية التاريخية وظف رموزاً للثورة المجيدة يقول في هذا السياق "وروح بن مهدي ولا صمود الفدائيات، مثل جميلة أمام وحشية الجلادين وانتظار المقصلة، مثل زبانه وطالب. لذلك كان يمكن أن نجد في أنفسنا هذا العذر أو ذاك لبعضهم"²⁹ وبهذا يجلى الحضور الطاغى للشخصية التاريخية التي ولدت عبر النص مفارقة دلالية لبعض المضمرة التي يختزنها التاريخ الوطني الذي تعرض للسطو والتغيب يقول: "وكيف لقائد محنك مثل بن بولعيد أن يقتله في العام الثاني: 22 مارس 1956 جهاز راديو مفخخ ألقته

طائرة العدو جيء به إليه في كازمة ليحرب تشغيله؟ وبعده يقع القائد زيغود يوسف في العام الثاني 25 سبتمبر 1956، في كمين نصبته له هو وسبعة من رفاقه دورية معادية في أحد المنازل المعزولة؟ وأي أخبار عن القائد عبان رمضان نصدق، أستشهاده في العام الثالث 26 ديسمبر 1957 كما بلغنا عبر جريدة المجاهد، أم تلك التي تشاع عن أنه قتل لربطه اتصالات مع العدو، لم يكشفها للرفقاء، أم أنه اغتيل تصفية لحسابات؟³⁰ تؤكد هذه المقاطع السردية عن التناقض الموجود في التاريخ، فقد اتكأ من خلال هذه الشخصيات التاريخية ليستعيد الذاكرة المعطوبة و يرسم صورة دقيقة للتفاصيل المغيبة عبرها يقول " وكيف يسقط القائدان عميروش وسي الحواس في العام الخامس 29 مارس 1959، في كمين قاتل نصبه لهما العدو، لدى محاولتهما عبور الحدود الشرقية؟ لسمعة قائد الولاية عميروش الرهيب، كما وصفته وسائل الإعلام وأظهرته صورها مقتولا منخل الصدر بالرصاص، كان أفراد الحركي خاصة يتزاحمون في توجس، ليتأكدوا من موته أكثر منه أن يشبعوا فضولهم مثل العسكر الآخرين"³¹، هنا تبرز فاعلية الشخصية في التعبير عن الرؤى التي يريد الكاتب إيصالها، في هذه المقاطع توسلت الكتابة الروائية بالحقيقة التاريخية، هذه التصفيات والاغتيالات التي طالت رموز الثورة والتي لا تعرف أسبابها وملابساتها الحقيقية ظلّت كمغص يراود أفئدة الوطنيين الذين عاصروا أبطال الثورة، تتوالى الأعوام وترافقها الاغتيالات، والأمر الذي أحدث الشك والارتباك هو التهم المنسوبة لأبطال الثورة المحنكين الذين قاوموا العدو ووقفوا في وجه أساليبه الجائرة، فالروائي هنا يطرح الجوانب المظلمة في تاريخ الثورة وسائلما خفي.

تعددت الشخصيات في الرواية فمنها الشخصيات الحكائية التي تؤسس لوعي جديد، ومنها شخصيات ذات مرجعية تاريخية، وتشتبك كلها في نقطة الوصل بين الذاكرة والحاضر وهذا ما حدده موقعها في النص من خلال تجريد التصورات والأحداث التاريخية والسياسية التي عبرت عنها في مواقفها.

الخاتمة

توصلنا من خلال هذه الورقة البحثية إلى أن الكتابة التاريخية من أبرز المحاور التي استند عليها الروائي، وتعمق في تفاصيلها وراح يبحث في طياتها ويؤسس معرفة تاريخية بالزمان والمكان، وقد ظهرت بوادر هذه الكتابة عند الحبيب السائح الذي انخرط في التاريخ واقترب منه ودرس وثائقه محاولا استيعاب تفاصيله. وأن المرجعيات تعد بالنسبة للكاتب مصدرا يوفر له المادة التي تحيله إلى الغاية التي يريد الوصول إليها في تجربته الروائية التي يوظف فيها رؤيته وفكره ويلونه بالأبعاد الجمالية .

- قدم الروائي سردية كولونيل الزبير وفق مسلك جديد في الكتابة، فتح ملفات تاريخية شائكة عبر مذكرات تشبه السيرة الذاتية سجل فيها قصص مناضلين استبيحت دماؤهم، وكشف مكائد ودسائس السياسة.

ط.د.نور الهدى غرابة د.سليم كرام التاريخي في رواية كولونيل الزبير للحبیب السائح بين جدل المرجعي

-حاول أن يعرض لنا التاريخ على شكل قصة يسقطها على الحاضر، وتوضيح الاشكالات الملتبسة في تاريخ الثورة، فكانت الكتابة المضادة بمثابة مقاومة للنسيان.

-يعد التاريخ مظهر من مظاهر الواقع تتوارثه الأجيال بكل تفاصيله، فهو يحمل في ثناياه المعلوم والمسكوت عنه، وما رواية كولونيل الزبير إلا استنطاق لذلك الجانب المظلم لأنّ الماضي ما هو إلا امتداد للحاضر.

-تميزت سردية كولونيل الزبير بكتابة فنية واعية مغايرة عما ألفناه سابقا، وتجلّى ذلك في السرد وطريقة عرض الأحداث والشخصيات، فهي بمثابة قراءة جديدة للذاكرة التاريخية.

- جاءت الرواية مشحونة بذاكرة الماضي، أثبت من خلالها الروائي ذلك الصدع على مستوى التاريخ الوطني من خلال عرض الأحداث المغيبة تارة، والأحداث المرجعية كاغتيال العقيد شعباني.

-وظف الروائي في نصوصه شخصيات أقرب إلى الواقع سواء التي اتصلت بتاريخ الجزائر بوصفها علامة دالة على حقائق و تأويلات تاريخية، فهي تفتح سجلاته وفق قراءة نقدية جديدة .

- تقاطع التاريخ مع الرواية ضمن رؤية جديدة انتق فيها من التسجيل و التوثيق إلى خطاب تاريخي يميل للتخييل، وتجلّى ذلك في تولد الحقيقة التاريخية وإسقاطها على الراهن المعاش .

هوامش وإحالات المقال

¹ محمد القاضي: الرواية والتاريخ- دراسات في تخييل المرجعي-، دار المعرفة للنشر والتوزيع، تونس، ط.2008، 1، ص.65

² جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد كاظم، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص.89.

³ شعبان عبد الحكيم محمّد: التجريب في القصّة القصيرة (1960-2000)، العلم والإيمان للنشر والتّوزيع، مصر، (د. ط.)، 2011، ص.24.

⁴ حسين سالم هنيدي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث-دراسة البنية السردية-، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان،

الأردن، ط1، 2014، ص.18.

⁵ الحبيب السائح، كولونيل الزبير، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط 1، 2015، ص.62.

⁶ محمد بوعزة: سرديات ثقافية من سياسيات الهوية الى سياسيات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.2014، 1، ص.37.

⁷ بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للنشر والإشهار، ط1، 1999، ص.116، 115.

⁸ عبد الحميد ختالة: بين سلطة التاريخ الثوريّ للجزائر وهيمنة الحكى في رواية" حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" للروائي عز الدين

جلالوجي، مجلة الموروث، العدد2، 2013، ص 125-126.

⁹ الرواية ، ص.18

¹⁰ سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة(الوجود والحدود)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص.165.

¹¹ الرواية ، ص.60

¹² الرواية ، ص.80

¹³ عبد الرحمان التمار، السرد والدلالة ، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص.132.

¹⁴ داريوش شايفان: أوهام الهوية، تر: محمد علي مقلد، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص.70.

- 15 عبد الله إبراهيم: التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص5.
- 16 الرواية، ص 181.
- 17 سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984، ص 76.
- الرواية، ص 18128.
- الرواية، ص 1957.
- 20 المصدر نفسه، ص 57.
- 21 الرواية، ص 92-93.
- 22 عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 91.
- 23 سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1989، ص 126.
- عبد الله الزكيبي: القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر / (د.ط.)، (د.ت)، ص 24132.
- الرواية، ص 25104.
- 26 الرواية، ص 181.
- 27 الرواية: ص 18.
- 28 الرواية، ص 200.
- 29 الرواية، ص 128.
- 30 الرواية، 128-129.
- 31 الرواية، ص 129.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للنشر والإشهار، ط1، 1999.
2. جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد كاظم، دار الطليعة، بيروت، 1978.
3. حسين سالم هنيدي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث-دراسة البنية السردية-، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014.
4. الحبيب السايح، كولونيل الزبير، دار الساق، بيروت، لبنان، ط 1، 2015.
5. داريو شايغان: أوهام الهوية، تر: محمد علي مقلد، دار الساق، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
6. سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة (الوجود والحدود)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.
7. سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1989.
8. سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984.
9. شعبان عبد الحكيم محمّد: التجريب في القصة القصيرة (1960-2000)، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، (د.ط.)، 2011.
10. عبد الحميد ختالة: بين سلطة التاريخ الثوري للجزائر وهيمنة الحكيم في رواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" للروائي عز الدين جلاوي، مجلة الموروث، العدد2، 2013.
11. عبد الرحمن التمار: السرد والدلالة-دراسة في تأويل النص الروائي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017.

12. عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998.
13. عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
14. محمد بوعزة: سرديات ثقافية من سياسيات الهوية الى سياسيات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، ط1، 2014.
15. محمد القاضي: الرواية والتاريخ- دراسات في تخييل المرجعي-، دار المعرفة للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2008.